الفصل التاسع عشر

ماذا عليك أن تعمل لكي تعلم؟

obeikandl.com

obeikandl.com

ماذا عليك أن تعمل لكي تعلم؟

إذا تحقق الإيمان الصادق ومحبة الله ورسوله أولًا فإن العمل بمقتضاه سيأتي تبعًا له وبطيب نفس، وكما جاء في القرآن، لن تكون العبادات العملية ثقيلة على الخاشعين لله الذين يعتقدون أنهم سيلاقونه، وليس من هدف هذا الكتاب الدخول في تفاصيل العبادات الفعلية بقدر ما يركز على الأفعال الضرورية لحفظ وتقوية الإيمان العلمي والاعتقادي، ولكي تصل إلى ذلك المستوى الأمين من الإيمان الذي تأمن عليه، وتأمن به من كل خوف، وتلوذ به عن كل وحشة، وبه تصبح على الحق المبين، وتكيف حياتك الوجودية بكل استرخاء وطمأنينة دون وجل أو توجس بكل حرية كي تواجه حياتك مبتسمًا، وتقبل الرحيل منها مبتسمًا، وتضمن الفرحة الكبرى والابتسامة العظمى أمامك في الحياة الأبدية، فعليك أن تحصن إيمانك بخطوات عملية مع حسن الظن بالله، فهو خير زاد لك في الدنيا.

*****

الإيمان قبل العمل

الإيمان أولًا ثم العمل ثانيًا، وهذا التركيز على ضرورة ترسيخ الإيمان بالله وتثبيته، كنقطة انطلاق في كل شيء في وجودنا ليس المقصود منه التقليل من العمل والطاعات والعبادات، ولكن لتأكيد أهمية الإيمان وأسبقيته على كل عمل، وكيف يعمل الإنسان قبل أن يعلم لمن يعمل، ومن يرجو ويخشى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩] وهذا هو سر تكرار ذكر الإيمان في القرآن مقرونًا، بل متبوعًا بالعمل الصالح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] ما يؤكد على أهمية ما يترتب على الإيمان من ترجمة عملية من طاعة الله واجتناب معاصيه، ومن الطبيعي أن يزيد هذا الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية حتى إنه ليكون في لحظة الوقوع في المعصية أقل ما يكون لتغلب شهوة المعصية على قوة

استحضار الإيمان، لكن سرعان ما يسترد الإنسان وضعه الطبيعي بالإقلاع والاستغفار والتوبة الممزوجة بالحزن والندم كما جاء في الحديث الصحيح: «**من سرَّتْه حسنتُه، وساءتْه سيِّئتُه، فهو مؤمنٌ**»(١)، وهذا ورب السماء هو الفضل العظيم من الخالق على المخلوق.

نحن في أمسّ الحاجة إلى المصالحة الفكرية مع الذات، ووضع حدٍّ لتلك المعارك المحتدمة داخل بعض النفوس المؤمنة عن الوجود ومآلاته، وذلك عن طريق علاجها ببلسم الوحي والإقرار بالواقع الإيماني المريح، والقبول به اعتقادًا وقولًا وعملًا، فنستعيذ بالرب الرحيم من الشيطان الرجيم ومن وساوسه كلها، ونعرف قدرنا حق المعرفة في هذا الوجود، ونتواضع لله الواحد القهار منكسرين بين يديه بضعفنا وفقرنا إليه، ونلحق بركب أبينا إبراهيم عليه السلام، نؤمن إيمانًا على منهج الأنبياء وعلى بصيرة ودراية، وليس إيمان العجائز على غفلة وبلاهة، إيمانًا نتفكر من أجله في الوجود، فنزداد معرفة ويقينًا بخالقه سبحانه، ونرتقي بالمعرفة الوجودية كي نزداد إعجابًا وتعظيمًا لرب الوجود الذي لن ندركه بحواسنا ولا حتى بعقولنا التي وهبنا لندرك بها ما لا ندركه بالحواس، ولكننا صدقنا خبره حين جاءنا من أصدقنا، ومن أصدق من الله قيلًا؟

سنمضي في حياتنا الدنيا مستظلين بظل الإيمان، وسنتأمل ما حولنا من الآيات الكونية المحسوسة كالكواكب... القمر.. الشمس.. ونزيد عليها بتأمل ما كشفه لنا العلم من مجموعات شمسية ومجرات وكويزرات، سواء ما أدركناه بحواسنا أو ما توصلت إليه مدارك عقولنا استنباطًا واستنتاجًا، ولو وصل العلم بنا إلى أضعاف أضعاف ما وصلنا إليه اليوم فلن نقترب من معرفة ما لم نخلق لمعرفته إطلاقًا، ولن نتجاوز أقصى ما وصل إليه أبونا إبراهيم عليه السلام من قبل، حين تأمل، ثم قال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٩] ولنعلم علم اليقين أن الوحي وحده هو سبيلنا الوحيد للوصول إلى أي خبر غيبي، وأن خبره ضروري جدًّا في إكمال منظومة المعرفة في الدنيا وما بعدها، وأن التصديق به ضروري كضروة الغذاء والتنفس للحياة، ولنستسلم لله استسلاما لا يشوبه أي تردد ولا مكابرة، وهنا تتجلى لنا معرفة الحكمة من الأعمال التعبدية لله المبنية على الإيمان الصحيح، كالركوع

(١) الحديث رقم (٦٢٩٤) في صحيح الجامع للألباني.

والسجود والطواف والصيام والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة والرمي والخضوع المطلق لله اعتقادًا وقولًا وعملًا، إنه لزامًا علينا أن ننحني له وبكل الإخلاص راكعين، ونخر له ساجدين، مقتدين بالرسول الأعظم ﷺ الذي امتثل لأمر الله الذي أمره بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] وبقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

*****

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨]

إنها الفطرة السليمة والعروة الوثقى التي قوامها الإيمان الراسخ والعمل الصالح وحسن الظن بالله، صبغة الله وفطرته التي يتحطم على صلابة اليقين بها كل أشكال الشكوك والوسوسة واليأس، وهي فضل من الخالق يولد عليها كل إنسان، وإن عصفت به أمواج بحار الفكر فيما بعد، وتفجرت أمامه براكين التساؤلات الكامنة التي لم ولن يجد الإنسان لها جوابًا من عنده، ولن يجد حلًا لها إلا بالتسليم المطلق لله الخالق والانقياد له صاغرين غير مستكبرين، ونحن مستمسكون بها، من هنا وجب علينا الفرار إلى الله طمعًا في السلامة والأمان، رافعين شعارنا في وجه كل جاحد ومعارض وكافر وملحد: إننا نعتز كل العزة، ونفتخر كل الفخر بعبوديتنا لله وحده، نؤمن به، ونحبه، ونطيعه، ونجد في ذلك من الطمأنينة والسعادة والأمل والأمن المستقبلي ما لم يخطر على بال من حرم منه، وجدنا أنفسنا هنا في حديقة السعادة الدائمة بعناية الله وحفظه في حياتنا وبعد مماتنا، إننا نتلذذ في النعيم، ونحن نستشعر كامل الاستسلام والتسليم المطلق للخالق العظيم، وشعارنا هو: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٤].

*****

خطوات عملية احترازية

ولكي تعلم هذا العلم الضروري لكل ما بعده، وتؤمن هذا الإيمان، وتتمتع بهذه الطمأنينة والأمان، لا بد أن تقوم بخطوات عملية فورية لإتمام هذه المكاسب الثمينة والمحافظة عليها، ومنها ما يلي:

١- ثق بالله تعالى تمام الثقة، واطمئن إليه كل الطمأنينة، واستقبل هذا الوجود كله بروح هادئة مطمئنة، وتصرف بشكل طبيعي جدًّا في تفاعلك مع من حولك، كن مسترخيًا واثقًا بأنك تحت رعاية من يملك كل شيء، ثم فكر، وابحث، ونقّب، واطلع، وحاور، وناقش، وجادل كيفما بدا لك الأمر، ولكن تأكد أنك ستبقى (أنت كما بقي من قبلك، وكما سيبقى من بعدك) عبدًا ضعيفًا لخالقك محتاجًا إليه، عالة على فضل الله ورزقه وعافيته، محتاجًا إلى كل شيء يكون الخالق فيه غنيًّا عنك وعمن سواك، فهو مالك الملك سبحانه؛ لا سواء ولا شراكة ولا ندّ له ولا شبيه له في وجوده وربوبيته وألوهيته للوجود كله، واعلم أن هذه هي الحقيقة المطلقة التي منها تبدأ وإليها تنتهي مهما طال بك الطريق، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٢- اعلم أن الذي خلقك قد خلق باختياره إلى جانبك الموت والحياة وأمورًا أخرى قدرها أن تكون فوق استطاعتك مهما بلغت من العلم، وأنه لا قرار لك ولا إرادة بذلك، ومن رحمته أنه لم يكلفك بها، ولن يحاسبك عليها، بل جاء تكليف السيد القادر لأقصى درجات القدرة، لعبده الضعيف لأقصى درجات العبودية والاستسلام والخضوع آمن أم زعم أنه لم يؤمن، تكليفًا محددًا وفق استطاعته، فهو عبد لله ولا خيار له في ذلك: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. فاصبر على ما يمر بك من خير وشر وابتلاءات حتى يوم المعاد، انتظارًا للوعد الحق، فقد أمر الله بالصبر من أجله، ونهى عمن يثني عن الاستعداد لهذا الموقف: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٣- تذكر أن مصدر هذه الطمأنينة التي تسعى جاهدًا للبحث عنها موجود في نفس منبع القلق الذي يحيط بك؛ لأن الأمر كله يتعلق بالله سبحانه، وهو الذي له الخلق والأمر وإليه يرجع الأمر كله في هذا الوجود، فلا فرار منه إلا إليه، ولا يوجد أحد تزداد شوقًا إليه كلما تضاعف خوفك منه إلا الله تعالى، أرأيت كيف ترتكب الذنب في حق الله، فتخاف من الله، وتبكي شوقًا إليه وطمعًا في مغفرته ورحمته وستره؟! أتدري لماذا؟ لأنك مؤمن من داخل نفسك أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فَلِمَ لا تثق بالله، وتبادر بتحويل أي قلق يتعارض مع هذا الظن الحسن به إلى طمأنينة مطلقة بإذابته في معين الإيمان الصافي، تأكد أنك بهذا الحال المتردد فيها بين الخوف والرجاء تصبح مؤمنًا بالله وبالغيب حق الإيمان، وهذا الصراع لبقائه، بل إن هذا الألم الداخلي مما يدور في تفكيرك أحيانًا حوله واستعار لهيب الجدال بهذه الشدة هو تأكيد على تجذر إيمانك ورسوخه، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٤- تلمس الواقعية، وابتعد عن الأحلام والنرجسية، عليك أن تعيد النظر في كثير من أوهام السعادة المطلقة التي قد تحلم بها أحيانًا في الدنيا، فلست هنا في دار جزاء، بل أنت في دار ابتلاء وامتحان لا خيار لك في وجودك فيها ولا رحيلك منها، دار تبدأ بآلام الولادة، وتنتهي بآلام الموت والحزن، وكلما مر عليك غبش أو قلق في هذه الدنيا تذكر أن خيارك الحر محصور بين اختيار طريق الجنة أو طريق النار فقط، وأنك تحتاج إلى مجاهدة النفس حتى تنتهي فترة الامتحان بالنجاح المأمول بحول الله والاستقرار بالجنة، وهذه الفترة تحتاج منا ومنك إلى عناية خاصة وحذر وحيطة، خاصة أنها فرصة واحدة وحيدة لا تتكرر مطلقًا، وسيكون أجرك مضاعفًا بهذا الإيمان الغيبي إذا علمت أن من كانوا أفضل منك وأعلى درجة من اليقين والإيمان، قد احتاجوا إلى جرعة خاصة من التثبيت الرباني وطمأنة القلب وتثبيت الفؤاد، على الرغم من أن الوحي كان ينزل عليهم، ويُطلَعون على بعض علوم الغيب مما لا تطلع عليه، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٥- لا تحلم يومًا بالاطلاع على غيب الله أو معرفة سر من أسرار الوجود في الدنيا سوى ما كشفه لك الوحي، فقد حكم الله بحكمه بأنه لن يظهر على غيبه أحدًا، وأن كل

ما قام به الأولون من خوض في مسائل الغيبيات لم تفلح بشيء؛ لأن عقولهم أصلًا لم تخلق لها، ولم ولن يستوعبها عقل الإنسان، وجميع تلك المحاولات لم تقدم، ولم تؤخر في الحقيقة شيئًا، ولم تعالج أي إشكالية فكرية حول ما وراء هذا الوجود، ولولا خبر الوحي عن الماضي والحاضر والمستقبل لكان الإنسان أشد تيهًا وضلالًا فيما يخص الغيب والنشأة الأولى والآخرة، فلا بد من حسم هذا الأمر بهذا الوضوح مستأنسًا بكثرة من يؤمنون بالغيب والآخرة من الناس كافة على اختلاف مشاربهم وديانتهم، مقارنة بقلة شذت عن القاعدة وأحيانًا تتصنع الإلحاد مكابرةً لا اقتناعًا، والله أعلم بما يصفون، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٦- اعلم أن أمامك مستقبلًا مخيفًا جدًّا، وأهوالًا يشيب منها الولدان، وبسببها تضع كل ذات حمل حملها، ومنها يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه، وأول هذه الأهوال هذا الموت الذي قد يداهمك في أي لحظة، انظر ماذا يفعل بالأحياء من حولك، يتخطاك إليهم، وسيتخطاهم إليك لا محالة، ألا تعجب من غفلتك هذه وأنت لا تدرك ماذا يحدث لميتك بعدك، وأنك ستكون مكانه يومًا ما؟ فأين المفر من هذه الأهوال إذا لم نحزم الأمر في هذه الحياة من لحظتنا هذه؟ إياك ثم إياك أن تتغاضى عن حقيقة وحشة هذا الطريق الذي ستحمل فيه همك أمام أهواله وحدك، تزود بزاد السفر إلى العالم الآخر حالًا، واحصل على حاجتك من الأمن والطمأنينة والخلاص من كل خوف، واستعد لما سيقابلك، فستنقطع عاجلًا أم آجلًا عن الدنيا وجدالها وفلاسفتها وملحديها ومؤمنيها ونورها وظلامها وليلها ونهارها، ونجومها وكواكبها وسمائها وأرضها، وقريبًا ستتخلى ويتخلى عنك المال والوالد والولد، وستقدم على عالمٍ آخر لا تحمل فيه هوية ولا مالًا ولا لباسًا، وإلى كينونة أخرى مما لا يمكنك معرفتها إلا بخبر الوحي الذي هو اليوم بين يديك ميسرًا، وأن كل هذه الأهوال تنقلب أمنًا وفرحًا وسرورًا مع الإيمان، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٧- اعلم أنك الآن لا تزال في فسحة العمل والاستدراك التام، ها أنت هذه اللحظة تقرأ هذه السطور، وأنت بكامل الأهلية والعقل، فاغتنمها فورًا لتصحيح وضعك

فالأعمال بالخواتيم، والحد بينك وبين نهاية هذه الفسحة هو فقط خروج هذه الروح الغامضة من هذا الجسد الذي تلمسه، وتتحسسه بيدك، لا تدري متى يكون ذلك، فقد تواجهه في هذه اللحظة أو بعد دقائق من قراءتك لهذه العبارة أو بعد أيام أو سنوات، فهيا إلى التزود من الآن والاستعداد في كل لحظة للرحيل المحتوم الذي لا رجعة فيه، وأعظم زاد لهذا السفر هو الإيمان بالله حق الإيمان، الإيمان الذي لأهميته وجب تكرار التذكير به على مسامعك وعظًا وخطابةً وصلاةً وقراءة قرآن وأذكارًا، فبادر وبادر وبادر، فورب السماء إني لأكتب هذه السطور الآن في تسابق مع الأجل وجهل بالزمن، لا أدري هل أتمكن من نشره بنفسي أم سيسبقني الأجل، فينشره مَنْ بعدي برًّا بي، كم نحن ضعفاء أمام هذه الأقدار الكبرى ونحن لا نعلم متى وأين وكيف سنموت، والله المستعان، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٨- لا تجادل في أصل هذا الوجود بغير علم، وتذكر أنك موجود أصلًا دون أن تملك قرار وجودك ولا عدمك، ولا التحكم في حياتك الأولى قبل ولادتك، فتختار صورتك وزمانك ومكانك ورزقك وأجلك، ولا تملك تحديد زمان موتك ومكانه، وعلى كل من يدعي الندية والمزاحمة غير المتكافئة في الوجود أن يستحيي من الله الخالق القادر القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] لن تعلم ولن أعلم ولن يعلم أحد من الخلق عن هذا كله، بل الذي نعلمه علم اليقين أننا عباد ضعفاء فقراء محتاجون إلى كل عون ومساعدة من خالقنا وحده القادرعلى كل ما نعجز عنه، ولا علم لنا بشيء إلا بما علمنا الله به، وفي هذه الدنيا ستبقى أسرار الوجود فوق المستطاع مهما أوتي الإنسان من علم؛ لأن الله وحده هو الذي: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٩- تخلص من هذا الغرور الذاتي وأنت تواجه غرائب الوجود، وتذكر هامشية الإنسان بالنسبة إلى الوجود، وأنه مجرد مخلوق مغمور مدرج في زاوية نائية من ملك الملك الجبار الذي خلقه، وخلق حتى الدود التي ستأكل جسده مستسلمًا لها

بلا حراك بعد موته، وخلق من سيتولون التعامل مع جسده المسجى بعد الموت، غسلًا وتكفينًا وصلاة ودفنًا بلا أدنى حراك منه أيضًا، إن التفريط في الاستعداد لتلك اللحظة، ينقل المرء إلى منطقة الخطر، بل أخطر الخطر على الإطلاق، والوصول إلى الاقتناع بالعبودية لله ليس هزيمة ولا ضعفًا، بل إن الاستسلام لله تعالى هو غاية الشجاعة وفق المنطق السليم والعقل السوي، ولا يُعدّ إلا قوة وبطولة وعزًّا، ولو جمعنا المفكرين والفلاسفة الأولين والآخرين ومعهم الأنبياء في صعيد واحد وفي ميدان مفتوح، وجلس كل صاحب رأي أمام كتابه، فلن يقول الفيلسوف المسكين إلا: أيها الناس، هذا فكري وإليكم كتابي ومؤلفاتي، وما توصلت إليه بعقلي، سامحوني على التقصير! أما الأنبياء فسيقولون مطمئنين: هذا وحي ربنا وكلام ربنا وشرع ربنا وخبر ربنا ونحن مبلغون عنه، من اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وسيتقدمهم سيد الخلق ﷺ وبين يديه القرآن العظيم قائلًا: أيها الناس، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] اقرؤوا كتاب ربي، تلقيته وحيًا من ربي، وما أنا إلا مبلغ عنه، إنه ليس كتابي، فأنا أُميّ، بل هو كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيا ترى إلى أين تتجه الأنظار والعقول السليمة في هذا المسرح المفتوح؟ وأي الفريقين أقرب إلى الحق، ويهدي إليه وأحق أن يتبع عليه؟: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٠- اعلم أن كل ما يتم التوصل إليه من معارف عن طريق العلوم التجريبية لا يعكس الحقيقة المطلقة لفهم أسرار الوجود، فهي قاصرة دونها لقصر قدرتنا على الإحاطة بالعلوم كلها، وأن توظيف النصوص في غير مكانها لا يخدم النصوص، ولا يبرهن على الحقيقة، لست في حاجة إلى أي تكلف ثبت فيه ما قد لا تحتاج إلى إثباته، انطلق من الفطرة السليمة، واستعن بربك أولًا ثم بالتقدم العلمي ثانيًا، ولكن شَمِّر عن ساعد الجد واستبرئ لدينك وأمانتك ومستقبلك بقبول الإيمان وتقبله وتشربه وَافَقَهُ العلم أم لم يوافقه، واعلم أنه لا وقت للعبث والجدل،

فعجلة الزمان تسير وعمرك القصير ينقص، وأنت في كل ثانية تزحف إلى نهايتك المحددة والثابتة مسبقًا لن تسطيع بعدها شهيق نَفَسٍ قد زفرته، أو زفير نَفَس قد شهقته! إنك في أمسّ الحاجة إلى أن تشهد شهادة الحق أنه لا إله إلا الله، وهذه الشهادة لك أنت والله غني عنها، فقد شهد بنفسه على ذلك، وشهد معه ملائكته وأولو العلم من البشر، شهادة للإنسان شرف الانضمام إليها، ولا يضيرها إعراضه عنها، إنها تلك الشهادة الكونية بوحدانية الله وألوهيته وربوبيته: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١١- اعلم أنك ستقدم على الله فردًا، كما جئت إلى الدنيا فردًا: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ ﴾ [الأنعام: ٩٤] فعليك أن تعطي الأولوية لشأنك الذاتي الخاص بك، لا تنشغل بأمور الكون التي أمرها لخالقها، وهي أكبر منك ومن الناس أجمعين، ولا بشأن الناس الذين قد يخرجون منها سالمين وأنت متوهم أنهم معك في التسويف والتردد حائرون، ألا تراهم من حولك يستعدون للرحيل كل امرئ منشغل بشأنه عنك وعن غيرك؟ يصلون ويزكون ويصومون ويحجون ويقرأون القرآن ويسبحون ويهللون ويحمدون ويتوبون ويستغفرون! بل إنهم يقدمون أرواحهم ويستقبلون الموت في سبيل الله، إيمانا واحتسابا تاركين خلفهم الأهل والمال والدنيا بأسرها، ولا يفعل ذلك إلا من أيقن حق اليقين أنه سيلاقي ربه الذي وعده وعد الحق بأنه سيوفيه أجره على ذلك في يوم قال الله عنه: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١]، قد أيقنوا بهذا اليوم فاعدوا له العدة، فاسمع كما سمعوا، وآمن كما آمنوا، وعليك بنفسك فأنقذها، واستيقظ من سباتك كما استيقظوا، وعليك بنفسك فأنقذها أولًا، ولا تجعلها وقودًا لصراع البشر وجدال الفلاسفة والمتكلمين عبر العصور، فلو تتقصى حقيقة غالبيتهم إن لم نقل جميعهم لوجدتهم مؤمنين بوجود الله، مع اختلاف بينهم على الصفات والكيفيات والزمان والمكان، ولكنهم كالطيور المضطربة تتصادم ذهابًا وغيابًا داخل قفص الاستطاعة العقلية المحدود الذي يحطم فرط خاليهم فيما فوق

قدراتهم بلا شفقة، حتى إذا ما خرجوا خارج هذا القفص، وغرقوا في الفوضى الوجودية بما لا طاقة لهم بها، وما لم يخلقوا لها أصلًا كرّوا راجعين إلى قفصهم المغلق خوفًا من فقدان منصة اليقين التي اكتسبوها، محاولين التشبث بها ومن داخل القفص المعرفي يجاهدون أنفسهم لفهم ما يتوقعونه حولهم خارج القفص مع إقرارهم بالعجز عن النفاذ إلى ما وراءه، هكذا حالنا في الدنيا ونحن نحاول فهم غموض هذا الكون بمعايير ومقاييس الأرض التي نألفها، ونعلم ظاهرًا من علمها، وما فوق ذلك فلا مجال لمعرفته إلا بخبر خالقنا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] بل تحدانا هنا ونحن على الأرض واقفون أن ننظر إلى السماء، فنفهم شيئًا من أسرارها بالحواس أو العقل، وكرر التحدي والنتيجة الوحيدة لكل من رجع البصر في الكون متأملًا هي: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣- ٤] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٢- اعلم أن نزول جبريل عليه السلام بهذا الخبر العظيم من الله ليقول للناس: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولرسوله المصطفى ﷺ بالخطاب المباشر له ولنا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١] اعلم أن هذا أقوى إشارة إلى أبلغ المواعظ (الموت) الذي يفر منه كل مخلوق، تذكر تلك النصيحة النبوية: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»، وأن لحظة الموت رهيبة على الحي والميت على حد سواء، تلك ورب السماء أعظم وأغرب وأخطر وأولى محطات التحول في هذا الوجود، إنها لحظة الانفصال عن الدنيا والدخول في عوالم الآخرة وأهوالها أو أفراحها! إنها عتبة قصيرة، ولكنها تحول لا يمكن تخيله، وانقطاع عن شيء معلوم لنا، واتصال بعالم مجهول عندنا لا علم عن وجودنا هذا إلا بخبر الوحي لمن آمن به، فهل أنت مستعد بحق لمواجهة ذلك الانقطاع الكامل بينك وبين كل شيء من

عالمك الذي تغتر به اليوم مما يهمك، ويقلقك، ويشغل بالك في الدنيا من حياة وصحة ومال وولد ومرض وصحة وخلافات فردية أو سياسية وأخطار وموت وليل ونهار وأشجار وأمطار، هناك تواجه نتيجة اختيار الإيمان أو الكفر، ليؤول المطاف من خلال هذا الاختيار إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهذا منتهى العدل وأنت في هذه اللحظة تختار بكل حرية، وتعلم مسبقًا عاقبة كل اختيار، فمن كفر فالنار في انتظاره، ومن آمن فقد استحق أوفى الجزاء وأكمله في الجنة، تفضل تسلّم نتيجة الحكم مسبقًا: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩- ٣١] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٣- مع التأكيد على حقيقة ما تحمله من إيمان فطري إلا أنك في حاجة إلى تنقيته من بعض ما يشوبه من تصورات إيمانية خاطئة تمكنت منك منذ طفولتك، فتش بعمق، وستجد بعض التخيلات الذهنية التي لا حقيقة لها عن الله والوجود والبعث والجنة والنار والوحي والملائكة والشياطين، فليس صحيحًا أن تقيم صروح أفكارك الإيمانية الشاهقة بعد نضجك على أول تصور طفولي سطحي عن الوجود وفق قياس تمثيلي هزيل تكتشف فيما بعد أنه مضحك، بينما إيمانك الناضج يحتاج إلى قواعد راسخة تختلف عن خيالات الأطفال السطحية وتصوراتهم الساذجة التي تشكلت بما لا يتوافق مع فطرتهم السليمة، وفي مقدمة ذلك أن تتجنب (أنسنة) الخيال والتصورات بما لا يتناسب مع عظيم أسماء الخالق وعلو صفاته، عليك باستئصال تلك المفاهيم الخاطئة من جذورها واستبدالها بما يتناسب مع نضجك وفطرتك ونصوص الوحي الصريحة عن الله تعالى التي أصبحت تفهمها وتفقهها جيدًا كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]

ثق بإيمانك الذي تحمله، ولكن هذبه بنور الوحي، وتَوَّجهُ بآفاق العلم والمعرفة التي تجعلك أكثر خشية لله، تحتاج إلى هذا التجديد كي تكون واثقًا مؤمنًا بالله ومحسنًا الظن به، ثم ابدأ حياتك الجديدة مستنيرًا بنور الله الحق كي تعلم إلى أي مدى كنت تعيش في التيه من حيث لا تدري، عندما كنت غارقًا في الغفلة والتقليد على غير بصيرة، بينما نور الله بين يديك ميسرًا لك ولكل الناس: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٤- اعلم أنه لا خيار لك سوى الإيمان بالله وحده لا شريك له والعمل بمقتضاه، وهذا ما تضمنته أعظم عبارات التوحيد (لا إله إلا الله) التي لا يتقدم عليها أي شيء، فإذا صلحت صلح ما بعدها، وإذا فسدت فسد ما بعدها، وأنه من دون هذا الإيمان لن يكون لك أمل في النجاة والراحة والسعادة والسلامة في المستقبل، وكيف لا تختار الإيمان الذي به يتحقق الأمان وأنت على يقين تام بأن في الوجود وحشة وأمانًا، وخوفًا ورجاء، وحزنًا وفرحًا، وحياة وموتًا، وأشياء متعارضة، وأخرى متناقضة، وغيرها متضاربة، وأنك لا تستطيع أن تحملها عقلك؛ لعجزك، وليقينك أن كل ذلك بيد الله وحده، وأننا نحب الله الذي أوجدنا وأوجدك، ووعدنا بأنه سيحبنا إن أحببناه، وأن حبه لا يمكن إلا أن يكون مقرونًا بخطوات عملية منا تثبت المصداقية في اتباع وحيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] استحضر ذلك كله في جميع هذه الاحترازات المباشرة تحت أي ظرف، واستعن بالله، واسأله الهدية والثبات على الحق إلى أن تلقاه.

*****